المجموعة التاريخية للصغار

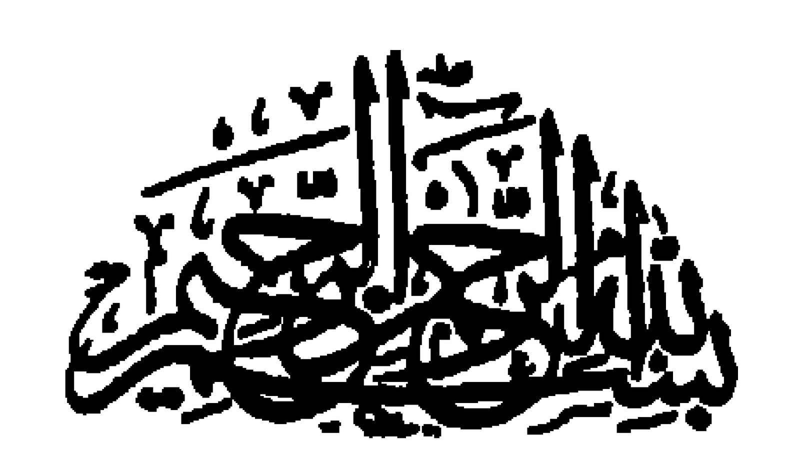
عجائب رحلة ابن بطوطة

حُوحو المجنونُ



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف 3 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

حُوحُو المَجْنُونُ

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ قَاصِداً مُحَدِّثَهُ وَنَدِيمَهُ الرَّحَّالَةُ ابْنَ بَطُّوطَةَ :

- زِدْنِي مِنْ عَجَائِبِكَ وَأَنْتَ مُقِيمٌ بِمَكَّةَ المُكَرَّمَةَ شَرَّفَهَا اللهُ وَمَا لَقِيتَ مِنْ أَهْلِهَا وَنَاسِهَا .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

- أَلا يَنْتَظِرُ مَوْلايَ كَاتِبَهُ ابْنَ جُزِّيٍّ لَعَلَّهُ يَخْتَارُ مِنْ حَدِيثِي مَا يَصْلُحُ لِلتَّدْوِينِ فِي سِجِلِّهِ الوَاسِعِ ، أَوْ لَعَلَّ شَيْئاً مِمَّا أَقُولُهُ يَصْلُحُ لِلتَّدْوِينِ بِأَمْرِكَ المُطَاعِ ؟ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُوعِنَانٍ :

- اعْلَمْ يَابْنَ بَطُّوطَةَ أَنَّ كُلَّ مَا تَقُولُهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُنْقَشَ بِرُؤُوسِ الإِبَرِ عَلَىٰ آمَاقِ البَصَرِ لِيَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ اعْتَبَرَ ، وَيَكْفِي أَنَّكَ أَتْحَفْتَنِي بِعَجَائِبِ

مَا مَرَّ بِكَ مِنَ الأُمُورِ وَالوَقَائِعِ مُذْ كَانَ خُرُوجُكَ مِنْ طَنْجَةَ حَتَّىٰ تَمَّ لَكَ أَدَاءُ فَرِيضَةِ الحَجِّ ، وَهَذِهِ بُغْيَتُكَ الشَّرِيفَةُ ، فَضْلاً عَنْ زِيَارَتِكَ لِلمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ مَثْوَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَحُضْنُ دَعْوَتِهِ الهَادِيَةِ وَحِصْنُهَا الحَصِينُ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، الذِي أَعْطَانِي فَأَرْضَانِي وَرَزَقَنِي فَأَغْنَانِي ، وَمَنَّ عَلَيَّ فِي آخِرِ العُمُرِ بِلُقْيَاكَ ، تَرْغَبُ فِيَّ وَأَرْغَبُ فِيكَ ، مُحَدِّثاً لِخَيْرِ مَنْ يَسْمَعُ ، وَمُنَادِماً لِخَيْرِ مَنْ يُنَادِمُ ، وَأَكْبَرُ عَزَائِي فِيمَا أَضَعْتُ مِنْ شَبَابِي مُرْتَحِلاً مُتَنَقِّلاً فِي البُلْدَانِ ، مُغْتَرِباً عَنِ الأَوْطَانِ ، أَنَّكَ وَجَدْتَ فِيَّ مَعِيناً مُسْتَسَاغاً لِكُلِّ مَا هُوَ عَجِيبٌ وَمُعْجِبٌ ، وَلَوْلا إِعْجَابُكَ بِبِضَاعَتِي وَشِرَاؤكَ لَهَا ، بِوَقْتِكَ الثَّمِينِ لَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّي أَضَعْتُ عُمُرِي بِلا طَائِلٍ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ لِنَدِيمِهِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ دَعْ ذَا ، وَحَدِّثْنِي عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَعَنْ أَعْجَبِ مَا تَوَافَقَ لَكَ مَعَ

أَهْلِهَا وَنَاسِهَا ، وَقَاصِدِيهَا ، وَمُجَاوِرِيهَا الكِرَامِ ، وَلا تَبْخَلْ عَلَيَّ بِأُحْدُوثَةٍ تَسْتَصْغِرُهَا شَأْنَاً ، فَقَدْ يَكُونَ بِهَا تَجَدُّدٌ وَغَسْلٌ لِشُجُونِ النَّفْسِ ، وَلَعَلَّكَ تَدْرِي حَقِيقَةَ انْشِغَالِي بِشُؤُونِ الرَّعِيَّةِ وَشُجُونِهَا حَتَّىٰ إِذَا اجْتَمَعْتُ بِكَ كَانَتْ لَنَا عُزْلَةٌ مُحَبَّبَةٌ وَمُنَادَمَةٌ مُسَلِّيَةٌ ، وَعِبْرَةٌ يَسْتَبْقِيهَا التَّارِيخُ لِمَنْ يَعْتَبِرُ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ سَأُحَدِّثُكَ يَا مَوْلايَ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ وَأَفْعَالِهِمْ وَفَضَائِلِهِمْ ، مُعَرِّجاً فِي آخِرِ حَدِيثِي عَلَىٰ خَبَرِ حُوحُو المَجْنُونِ الذِي كَانَ فِي خِدْمَةِ قَاضِي مَكَّةَ نَجْمِ الدِّينِ الطَّبَرِيِّ فَأَصَابَهُ مَسٌّ وَخَبَلٌ لِبَوْحِهِ بِسِرِّ رَجُلٍ ذِي كَرَامَةٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الصَّالِحِينَ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ قُلْ مَا عِنْدَكَ ، فَأَنَا مُصْغٍ إِلَيْكَ مَا وَسِعَنِي الإِصْغَاءُ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ أَهْلُ مَكَّةَ أَهْلُ الرَّسُولِ ﷺ وَعِتْرَتُهُ ، وَرُعَاةُ حَرَمِ اللهِ بَعْدَ أَنْ حَلَّ فِي

قُلُوبِهِمْ الإِيمَانُ ، وَهُمْ أَهْلُ الأَفْعَالِ الجَمِيلَةِ وَالمَكَارِمِ التَّامَّةِ وَالأَخْلاقِ الحَسَنَةِ وَالإِيثَارِ لِلضُّعَفَاءِ وَحُسْنِ الجِوَارِ لِلغُرَبَاءِ . وَقَدْ خَبِرْتُ مِنْ مَكَارِمِهِمْ أَنَّ أَحَدَهُم إِذَا صَنَعَ وَلِيمَةً يَبْدَأُ فِيهَا بِإِطْعَامِ الفُقَرَاءِ المُنْقَطِعِينَ المُجَاوِرِينَ ، وَإِذَا كَانَ أَحَدُهُمْ بِالفُرْنِ لِطَبْخِ خُبْزِهِ وَتَبِعَهُ المَسَاكِينُ أَعْطَىٰ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَاقُسِمَ لَهُ ، وَلا يَرُدُّ أَحَداً مِنْهُم خَائِباً ، وَإِنْ اسْتَنْفَدَ نِصْفَ مَاعِنْدَهُ أَوْ أَكْثَرَ ، وَهُوَ بِذَلِكَ طَيِّبُ النَّفْسِ مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ . .

وَأَضَافَ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَهْلِ مَكَّةَ :

ـ وَأَهْلُ مَكَّةَ لَهُمْ ظَرْفٌ وَنَظَافَةٌ فِي المَلابِسِ .

وَالعَجِيبُ المُعْجِبُ أَنَّ أَكْثَرَ لِبَاسِهِم البَيَاضُ ، فَتَرَىٰ ثِيَابَهُم أَبَداً نَاصِعَةً سَاطِعَةً ، وَهُم كَثِيرُو التَّطَيُّبِ وَالاكْتِحَالِ ، وَمِنْ عُدَدِهِم فِي النَّظَافَةِ السِّوَاكُ وَهُوَ عُودٌ مِنَ الأَرَاكِ الأَخْضَرِ . أَمَّا نِسَاءُ مَكَّةَ فَفِيهِنَّ جَمَالٌ وَعَفَافٌ ، وَهُنَّ يُكْثِرْنَ التَّطَيُّبَ ، تُؤْثِرُ إِحْدَاهُنَّ شِرَاءَ الطِّيبِ عَلَىٰ شِرَاءِ القُوتِ . وَيَقْصِدْنَ الطَّوَافَ بِالبَيْتِ العَتِيقِ كُلَّ لَيْلَةِ جُمُعَةٍ فَيَبْقَىٰ مِنْ آثَارِ طِيبِهِنَّ عَبَقٌ .

هُنَا ، اسْتَأْذَنَ عَلَىٰ مَجْلِسِ السُّلْطَانِ كَاتِبُهُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ فَأَذِنَ لَهُ فِي الحَالِ ، وَقَالَ لَهُ مَوْلاهُ :

ـ خُذْ اسْتِعْدَادَكَ لِلكِتَابَةِ ، فَقَدْ فَاتَتْكَ مِنْ فَضَائِلِ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ أَشْيَاءُ وَأَشْيَاءُ رَوَاهَا ابْنُ بَطُّوطَةَ .

قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ مُمَازِحاً :

ـ وَآخِرُ مَا أَدْرَكْتُهُ مِنْهَا العَبَقُ وَالطِّيبُ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ مُسْتَرْسِلاً فِي حَدِيثِهِ عَنْ مَكَّةَ وَأَهْلِهَا :

ـ وَأَهْلُ مَكَّةَ لا يَأْكُلُونَ فِي اليَوْمِ إِلاَّ مَرَّةً وَاحِدَةً بَعْدَ العَصْرِ ، وَيَقْتَصِرُونَ عَلَىٰ أَكْلَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَىٰ مِثْلِ ذَلِكَ الوَقْتِ مِنَ اليَوْمِ التَّالِي ، وَمَنْ أَرَادَ مِنْهُم الأَكْلَ فِي سَائِرِ النَّهَارِ اكْتَفَىٰ بِبَعْضِ التَّمْرِ ، لِذَلِكَ صَحَّتْ أَبْدَانُهُمْ ، وَقَلَّتْ فِيهِمُ الأَمْرَاضُ وَالعَاهَاتُ . .

قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ الكَاتِبُ مُتَّجِهاً إِلَىٰ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ :

ـ هَلْ أُدَوِّنُ هَذِهِ الشَّهَادَةَ بِأَهْلِ مَكَّةَ يَا مَوْلايَ ؟ أَخْشَىٰ إِذَا فَعَلْتُ أَنْ يُفَسِّرُهَا بُخَلاءُ الجَاحِظِ عَلَىٰ مَذْهَبِهِم . .

ضَحِكَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مِنْ كَلامِ ابْنِ جُزَيٍّ قَائِلاً :

ـ اكْتُبْ مَا تَسْمَعُ ، وَكُنْ مِنَ الأَكْلِ كَيْفَ شِئْتَ . .

قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ :

ـ أَمْرُ مَوْلايَ . . هَأَنَذَا أَكْتُبُ مَا يَقُولُهُ ابْنُ بَطُّوطَةَ وَلَكِنْ أَرْجُوهُ أَنْ يَتَأَنَّىٰ عِنْدَمَا يَتَنَاوَلُ سِيرَةَ الطَّعَامِ . . تَبَسَّمَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ ، وَوَاصَلَ الكَلامَ مُتَّجِهاً بِالحَدِيثِ إِلَىٰ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ :

ـ يُجَاوِرُ الحَرَمَ المَكِّيَّ يَا مَوْلايَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الفُقَهَاءِ وَالقُضَاةِ وَالرِّجَالاتِ الصَّالِحِينَ وَسَأَقْتَصِرُ مِنْ ذِكْرِهِم مَا عَرَفْتُهُ عَنْ قَاضِي مَكَّةَ العَالِمِ الصَّالِحِ العَابِدِ نَجْمِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ الإِمَامِ مُحْيِي الدِّينِ الطَّبَرِيِّ . وَهُوَ رَجُلٌ فَاضِلٌ كَثِيرُ الصَّدَقَاتِ وَالمُوَاسَاةِ لِلمُجَاوِرِينَ .لَمَسْتُ مِنْهُ حُسْنَ الأَخْلاقِ ، وَإِدْمَانَ الكَرَمِ وَالعَطَاءِ ، وَالحُبَّ لِلطَّوَافِ وَالتَّبَرُّكِ بِمُشَاهَدَةِ الكَعْبَةِ الشَّرِيفَةِ . . وَجَدْتُهُ يُطْعِمُ الطَّعَامَ فِي المَوَاسِمِ كُلِّهَا ، وَخُصُوصاً فِي مَوْسِمِ ذِكْرَىٰ مَوْلِدِ رَسُولِ الله ﷺ ، فَإِنَّهُ يَجْمَعُ عَلَىٰ مَائِدَتِهِ شُرَفَاءَ مَكَّةَ وَكُبَرَاءَهَا ، وَفُقَرَاءَهَا ، وَخُدَّامَ الحَرَمِ الشَّرِيفِ . وَكَانَ

المَلِكُ النَّاصِرُ سُلْطَانُ مِصْرَ ـ رَحِمَهُ الله ـ يُجِلُّهُ كَثِيراً ، وَيُجْرِي صَدَقَاتِهِ عَلَىٰ يَدَيهِ ، لأَنَّهُ لايَحْبِسُ مِنْهَا دِرْهَماً بَلْ يَزِيدُهَا بِمَايَقْدِرُ عَلَيْهِ وَيَسْتَزِيدُهَا بِأَفْضَالِ أَهْلِ البِرِّ وَالإِحْسَانِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ وَمَا خَبَرُ حُوحُو المَجْنُونِ الذِي عَدَدْتَهُ عَجِيباً ، وَمَا عَلاقَتُهُ بِقَاضِي مَكَّةَ نَجْمِ الدِّينِ الذِي ذَكَرْتَ ؟ !

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ الله ، ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ كَانَ بِمَكَّةَ أَيَّامَ مُجَاوَرَتِي بِهَا رَجُلٌ تَسَمَّىٰ بِحَسَنِ المَغْرِبِيِّ . . التَقَيْتُ بِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ فَحَدَّثَنِي بِأَنَّهُ فِي خِدْمَةِ القَاضِي نَجْمِ الدِّينِ الطَّبَرِيِّ ، وَبِأَنَّهُ مَغْرِبِيٌّ مِثْلِي مِنْ مَدِينَةِ أَسْفِي عَلَىٰ بَحْرِ الظُّلُمَاتِ جَنُوبِيَّ طَنْجَةَ . وَحَدَّثَنِي بِأَنَّهُ يَسْتَطِيبُ السَّمَكَ طَعَاماً كَانَتْ تَطْبُخُهُ وَتُعِدُّهُ لَهُ أُمُّهُ ، وَكَانَتْ فِي صِغَرِهِ تَدْعُوهُ : حُوحُو ، مَكَانَ حَسَنٍ ، وَلَمْ يَعْرِفْهُ بِحُوحُو إِلاَّ إِخْوَتُهُ وَالخَاصَّةُ مِنْ حَوْلِهِ ، حَتَّىٰ قَدَّرَ الله أَنْ يُسَافِرَ بَعِيداً عَنْ مَدِينَتِهِ ، وَيُجَاوِرَ

فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ خَادِماً لِرَجُلِ النَّجْدَةِ وَالكَرَمِ القَاضِي الشَّيْخِ نَجْمِ الدِّينِ الطَّبَرِيِّ .

كَانَ حَسَنٌ المَغْرِبِيُّ الذِي شَهَرَ نَفْسَهُ بِحُوحُو بَعْدَ جُنُونِهِ ، كَانَ عَابِداً تَقِيّاً كَثِيرَ الطَّوَافِ حَوْلَ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ آنَاءَ اللَيْلِ ،وَكَانَ يَرَىٰ إِلَىٰ جِوَارِهِ فِي سَاحَةِ الطَّوَافِ رَجُلاً بَادِيَ الفَقْرِ وَالمَسْكَنَةِ يُكْثِرُ الطَّوَافَ فِي الليْلِ ، وَلا يَرَاهُ إِلاَّ فِي الليْلِ ، فَلَقِيَهُ ذَلِكَ الفَقِيرُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَسَأَلَهُ عَنْ حَالِه ، وَقَالَ لَهُ : يَاحَسَنُ ! إِنَّ أُمَّكَ التِي خَلَّفْتَهَا فِي أَسْفِي مِنْ بِلادِ المَغْرِبِ مُشْتَاقَةٌ إِلَىٰ رُؤْيَتِكَ ،وَهِيَ تَبْكِي لِفُرْقَتِكَ فِي الليْلِ وَالنَّهَارِ أَلاَ تُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا ؟ قَالَ حَسَنٌ : بَلَىٰ ، أُحِبُّ ، وَلَكِنْ أَنَّىٰ لِي ذَلِكَ ؟ قَالَ العَبْدُ الفَقِيرُ : نَجْتَمِعُ هَاهُنَا تُجَاهَ مِزْرَابِ الرَّحْمَةِ فِي الليْلَةِ المُقْبِلَةِ ، وَتَنَالُ مُبْتَغَاكَ بِرُؤْيَةِ أُمِّكَ ، إِنْ شَاءَ الله تَعَالَىٰ .

كَانَتْ أُمُّ حَسَنٍ المَغْرِبِيِّ امْرَأَةً صَالِحَةً تَقِيَّةً عَمَرَتْ لَيَالِيَهَا بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَبِدُعَاءِ الله أَنْ يَجْمَعَهَا بِوَلَدِهَا حَسَنٍ ، قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهَا الأَجَلُ . وَيَبْدُو أَنَّ دُعَاءَهَا صَادَفَ سَاعةً مُسْتَجَابَةً فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ وَعْدِ الفَقِيرِ الصَّالِحِ لِحَسَنٍ المَغْرِبِيِّ أَنْ يُتِيحَ لَهُ الفُرْصَةَ بِقُدْرَةِ الله القَادِرِ . وَبِكَرَامَةِ

مِنْهُ يَمُنُّ بِهَا عَلَىٰ عِبَادِهِ المُتَّقِينَ .

فِي اللَيْلَةِ المُقْبِلَةِ ، وَكَانَتْ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ ، لَقِيَ حَسَنٌ المَغْرِبِيُّ مُوَاعِدَهُ العَبْدَ الصَّالِحَ تُجَاهَ مِزْرَابِ الرَّحْمَةِ بِالحَرَمِ المَكِّيِّ الشَّرِيفِ . فَطَافَ الاثْنَانِ بِالبَيْتِ العَتِيقِ مَاشَاءَ الله لَهُمَا أَنْ يَطُوفَا . وَقَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ لِحَسَنٍ المَغْرِبِيِّ اتْبَعْنِي فَتَبِعَهُ فِي صَمْتٍ إِلَي بَابِ الحَرَمِ المَعْرُوفِ بِبَابِ المُعَلَّىٰ ، وَوَقَفَ بِهِ هُنَاكَ قَائِلاً : الآنَ ، أَغْلِقْ عَيْنَيْكَ ، وَأَمْسِكْ بِثَوْبِكَ ، وَهَا نَحْنُ نُسَافِرُ فَرَدِّدْ مَعِي دُونَ أَنْ تَفْتَحَ عَيْنَيْكَ : (سُبْحَانَ الله وَالحَمْدُ للّهُ ، وَلا إِلَهَ إِلاّ الله ، وَالله أَكْبَرُ) . . وَمَضَتْ سَاعَةٌ مِنَ الوَقْتِ فَقَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ لِحَسَنٍ : أَتَعْرِفُ بَلَدَكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ أَعْرِفُهُ . قَالَ : انْظُرْهُ . هَا هُوَ ذَا ، اطْرُقْ البَابَ وَاسْتَأْذِنْ عَلَىٰ أُمِّكَ أَمَةِ الله الصَّالِحَةِ ، أَمَّا إِذَا شِئْتَ أَنْ تَرَانِي فَاطْلُبْنِي بِالجَبَّانَةِ لَيْلاً . .

فَتَحَ حَسَنٌ المَغْرِبِيُّ عَيْنَيْهِ فَإِذَا هُوَ أَمَامَ بَابِ دَارِهِ بِالمَغْرِبِ وَطَرَقَ البَابَ ثَلاثاً فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ أُمُّهُ وَالتَقَتْهُ وَكَأَنَّهَا عَلَىٰ مَعْرِفَةٍ بِقُدُومِهِ ، وَأَعَدَّتْ لَهُ طَبَقَامِنَ السَّمَكِ الذِي كَانَ طَعَامَهُ المُفَضَّلَ ، وَتَمَتَّعَ كُلٌّ مِنَ الأُمِّ وَالوَلَدِ بِفَرْحَةِ اللقَاءِ بَعْدَ فِرَاقٍ طَوِيلٍ .

أَقَامَ حَسَنٌ فِي بَلَدِهِ وَدَارِهِ وَبَيْنَ أَحْضَانِ أُمِّهِ نِصْفَ شَهْرٍ وَتَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَىٰ الحَرَمِ المَكِّيِّ الشَّرِيفِ وَإِلَىٰ شَيْخِهِ وَقَاضِيهِ وَمَخْدُومِهِ نَجْمِ الدِّينِ الطَّبَرِيِّ ، فَخَرَجَ إِلَىٰ جَبَّانَةِ البَلْدَةِ يَسْتَطْلِعُ أَخْبَارَ العَبْدِ الصَّالِحِ الذِي اقْتَادَهُ إِلَىٰ بَلَدِهِ مُتِيحاً لَهُ فُرْصَةَ اللقَاءِ بِأُمِّهِ المُؤْمِنَةِ الصَّابِرَةِ ، وَلَمْ يَطُلْ بِهِ الأَمَدُ حَتَّىٰ التَقَاهُ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حَسَنُ ؟ قَالَ حَسَنٌ المَغْرِبِيُّ : أَنَا يَاسَيِّدِي فِي أَحْسَنِ حَالٍ ، وَلَكِنَّنِي اشْتَقْتُ إِلَىٰ الحَرَمِ المَكِّيِّ وَلَيَالِي الطَّوَافِ ، وَإِلَىٰ رُؤْيَةِ مَوْلايَ الشَّيْخِ نَجْمِ الدِّينِ ، لَقَدْ كُنْتُ خَرَجْتُ مِنْ مُقَامِي عِنْدَهُ عَلَىٰ العَادَةِ المُعْتَادَةِ ، وَغِبْتُ عَنْهُ كُلَّ هَذِهِ الأَيَّامِ ، وَأُحِبُّ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَيْهِ . .

تَسَاءَلَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الذِي كَانَ يُتَابِعُ القِصَّةَ بِبَالِغِ الاهْتِمَامِ ، تَسَاءَلَ مَلْهُوفاً :

ـ وَهَلْ رَدَّهُ صَاحِبُهُ إِلَىٰ مَكَّةَ ؟ وَمَاذَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ بَعْدَ الوُصُولِ إِلَيْهَا وَقَدْ غَابَ عَنْ خِدْمَةِ سَيِّدِهِ القَاضِي قُرَابَةَ نِصْفَ شَهْرٍ دُونَ سَابِقِ إِخْبَارٍ وَاسْتِئْذَانٍ ؟ . حَدِّثْنِي حَدِّثْنِي . يَابْنَ بَطُّوطَةَ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ مَا حَدَثَ يَا مَوْلايَ ، أَنَّ العَبْدَ الفَقِيرَ الصَّالِحَ وَاعَدَ حَسَناً المَغْرِبِي أَنْ يَلْقَاهُ فِي مَوْضِعِهِمَا حَيْثُ التَقَيَا تِلْكَ اللَيْلَةِ فِي الجَبَّانَةِ . وَقَالَ لَهُ : كُنْ فِي وَدَاعِ أُمِّكَ العَابِدَةِ المُتَنَسِّكَةِ الصَّالِحَةِ ، وَسَتَجِدُهَا إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرَةً عَلَىٰ فِرَاقِكَ ، فَقَدْ جَرَىٰ لَهَا بِهِ سَابِقُ عِلْمٍ يَطُولُ شَرْحُهُ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ وَفِي اللَيْلَةِ التَّالِيَةِ يَا مَوْلايَ ، وَافَىٰ العَبْدُ الصَّالِحُ الفَقِيرُ مَوْعِدَهُ لِحَسَنٍ فِي الجَبَّانَةِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَفْعَلَ كَمَا فَعَلَ أَوَّلَ مَرَّةٍ حِينَ خُرُوجِهِمَا مِنْ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ . أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ ، وَأَمْسَكَ بِذَيْلِ ثَوْبِهِ ، وَبَعْدَ هُنَيْهَةٍ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالدُّعَاءِ بَلَغَا مَكَّةَ شَرَّفَهَا اللهُ ، فَأَمَرَهُ بِأَنْ يَفْتَحَ عَيْنَيْهِ فَإِذَا هُمَا فِي سَاحَةِ الحَرَمِ الشَّرِيفِ قُبَالَةَ الكَعْبَةِ المُبَارَكَةِ . وَأَوْصَاهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ أَلاَّ يُحدِّثَ مَوْلاهُ القَاضِيَ نَجْمَ الدِّينِ وَلا غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ بِمَا جَرَىٰ لَهُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ حِفْظُ السِّرِّ أَمَانَةٌ . .

وَقَالَ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ :

ـ وَحَمْلُ الأَمَانَةِ عِبءٌ ثَقِيلٌ حَتَّىٰ عَلَىٰ الجِبَالِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ صَدَقْتَ يَا مَوْلايَ السُّلْطَانَ ، وَصَدَقْتَ يَابْنَ جُزِّيٍّ . . إِنَّ صَاحِبِي حَسَناً المَغْرِبِيَّ لَمْ يَتَحَمَّلْ عِبْءَ الأَمَانَةِ الثَّقِيلِ مِمَّا آلَ بِهِ إِلَىٰ الجُنُونِ . . فَعُرِفَ مِنْ بَعْدِهِمَا بِحُوحُو المَجْنُونِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُتَلَهِّفاً لِسَمَاعِ الخَبَرِ العَجِيبِ :

ـ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ يَرْوِي الخَبَرَ :

ـ لَمَّا دَخَلَ حَسَنٌ المَغْرِبِيُّ عَلَىٰ مَوْلاهُ القَاضِي نَجْمِ الدِّينِ بَعْدَ غَيْبَتِهِ الطَّوِيلَةِ سَأَلَهُ القَاضِي : (أَيْنَ كُنْتَ يَاحَسَنُ فِي غَيْبَتِكَ الطَّوِيلَةِ ؟) فَأَبَىٰ أَنْ يُخْبِرَهُ بَادِئَ ذِي بَدْءٍ فَأَلَحَّ عَلَيْهِ وَاسْتَحْلَفَهُ بِأَيْمَانٍ مُغَلَّظَةٍ ، فَأَخْبَرَهُ بِالحِكَايَةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا . . فَقَالَ القَاضِي نَجْمُ الدِّينِ : أَرِنِي الرَّجُلَ الذِي حَمَلَكَ مِنَ الحِجَازِ إِلَىٰ المَغْرِبِ . . فَقَالَ حَسَنٌ لِسَيِّدِهِ :

كُنْ مَعِي هَذِهِ اللَيْلَةِ ، فِي صَحْنِ الطَّوَافِ حَوْلَ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ ، فَأَتَىٰ مَعَهُ لَيْلاً وَتَرَقَّبَا مُرُورَ الرَّجُلِ الفَقِيرِ الصَّالِحِ ، فَلَمَّا مَرَّ إِزَاءَهُمَا ، قَالَ حَسَنٌ لِلقَاضِي نَجْمِ الدِّينِ : هَذَا هُوَ الرَّجُلُ يَاسَيِّدِي ، فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَىٰ فَمِهِ وَقَالَ : اسْكُتْ أَسْكَتَكَ الله . فَخَرِسَ لِسَانُهُ وَذَهَبَ عَقْلُهُ ، وَبَقِيَ بِالحَرَمِ مُوَلَّهاً يَطُوفُ فِي اللَيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ غَيْرِ وُضُوءٍ وَلا صَلاةٍ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ وَمَا خَبَرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ ذَاعَ صِيتُهُ وَاشْتُهِرَ بِاسْمِهِ حُوحُو المَجْنُونِ ، وَلَكِنَّ بَعْضاً كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ظَلُّوا يُقَرِّبُونَهُ وَيَتَبَرَّكُونَ بِهِ وَيَكْسُونَهُ . وَإِذَا جَاعَ خَرَجَ إِلَىٰ السُّوقِ التِي بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ ، فَقَصَدَ حَانُوتاً مِنَ الحَوَانِيتِ فَيَأْكُلُ مِنْهَا مَايُحِبُّ دُونَ أَنْ يَصُدَّهُ أَحَدٌ أَوْ يَمْنَعَهُ ، بَلْ كَانَ صَاحِبُ الحَانُوتِ الذِي يَأْكُلُ مِنْ عِنْدِهِ يَبِيتُ مَسْرُوراً لِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ البَرَكَةِ وَالنَّمَاءِ فِي بَيْعِهِ وَرِبْحِهِ .

وَكَانَ إِذَا قَصَدَ أَحَدُ السَّقَّائِينَ يُرِيدُ أَنْ يَشْرَبَ تَسَابَقَ إِلَيْهِ كُلُّ مَنْ رَآهُ لِيَسْقِيَهُ مِنْ قُرْبَتِهِ ، فَلا يُعْدَمُ البَرَكَةَ وَالنَّمَاءَ فِي رِزْقِهِ بَعْدَ ذَلِكَ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِمُحَدِّثِهِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ هَـٰذِهِ حِكَـايَـةٌ عَجِيبَـةٌ حَقّـاً مِـنْ حِكَـايَـاتِ أَوْلِيَـاءِ اللهِ ، وَأَرْبَـابِ الكَرَامَاتِ ، وَسَتَبْقَىٰ فِي ذَاكِرَتِي حِكَايَةُ حُوحُو المَجْنُونِ ، بِأَوْضَحَ مِمَّا تَبْقَىٰ فِي سِجِلِّ الكَاتِبِ ابْنِ جُزِّيٍّ . .

تَبَسَّمَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ ، وَتَفَرَّقَ الجَمْعُ عَلَىٰ خَيْرٍ وَسَلامٍ . .

☆☆ ☆☆ ☆☆

☆☆ ☆☆

☆